جامعة البصرة
المكتبة المركزية
المجلات
رقم التصنيف ٠٥١
رقم السجل ٢٥٠٢٨
التاريخ ١٧/٨/٩٧٤

dr. nouri jaffar دكتور نوري جعفر
صفحتنا على موقع أرشيف https://archive.org/details/@nijood_jaffar

الثقافة الجديدة

فكر علمي . ثقافة تقدمية

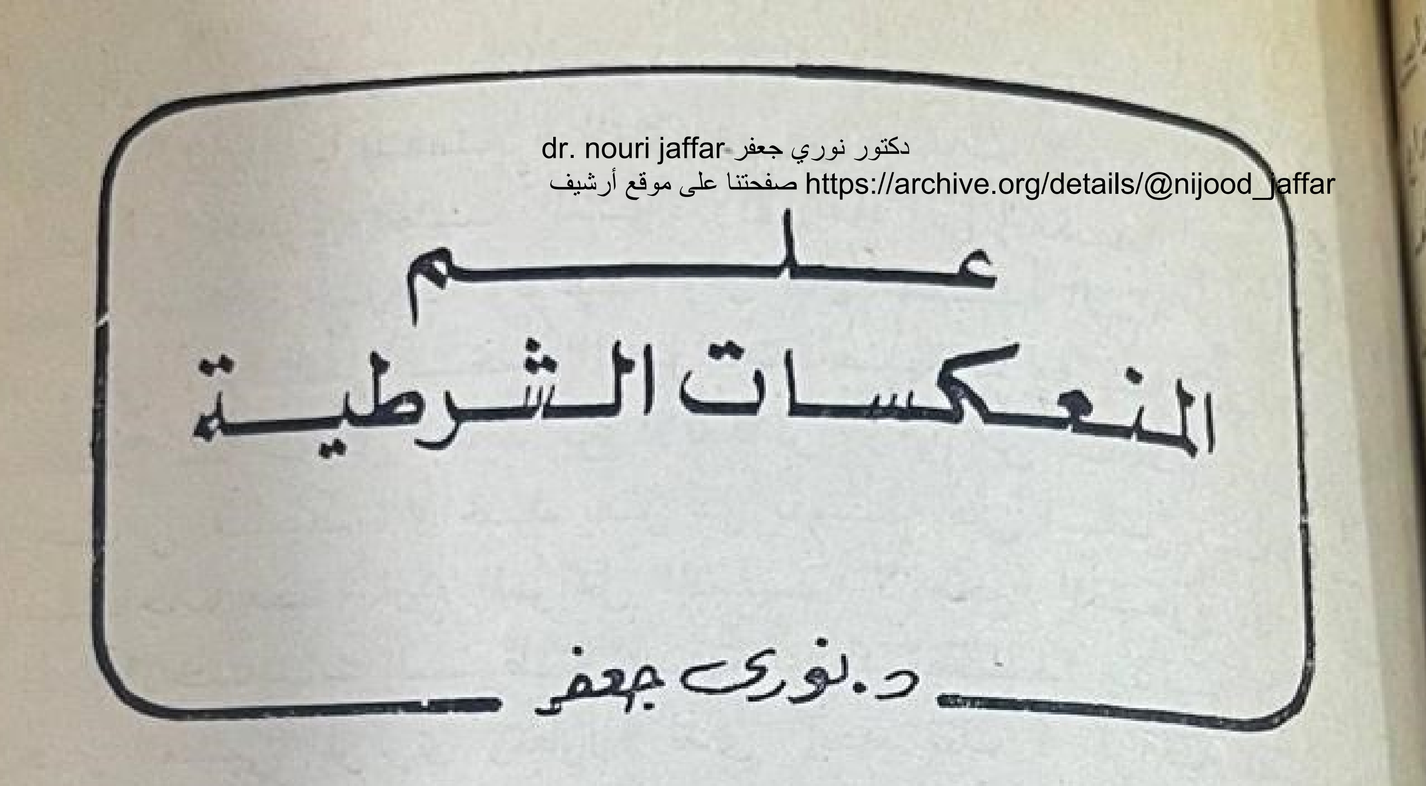
العدد ـ ٦٣

آب ـ ١٩٧٤



صاحب المجلة
الدكتور صفاء الحافظ
رئيس التحرير
مكرم الطالباني
مدير الادارة
شمران الياسري
العنوان :
شارع السعدون ـ بتاويين
محلة الرواف ١٥ـ١٢ـ١
ت ـ ٨٣٩٧٣

مطبعة الشعب ـ بغداد



يجمل بنا قبل التحدث عن علم المنعكسات الشرطية (وهو علم طبيعي مثل الفيزياء او الكيمياء) الذي يقترن باسم بافلوف ان ننبه الى ضرورة التمييز بين ظاهرة الانعكاس Reflection

(من حيث هي ظاهرة فيزيائية تتصف بها الاجسام اللاحسية وتبدو على هيئة انعكاس الضوء مثلا او صور الاشياء في المرآة الصافية) وبين ظاهرة الانعكاس الفسلجي (او الانطباع الذهني) الذي يحصل في الدماغ بفعل الموءثرات البيئية المحيطة والذي هو بشكله الارقى احد خواص الدماغ او احد اشكال المادة وهي في حركتها الصاعدة اثناء بلوغها اعلى مستويات التنظيم المتمثل في دماغ الانسان .

والانعكاس من حيث هو ظاهرة فيزيائية يحدث في الاجسام الجامدة بشكله الاستسلامي المنفعل البسيط الذي هو احد خواصها . وظاهرة الانعكاس هذه ترتبط بوجود علاقة بين جسمين احدهما فاعل او موءثر والاخر منفعل او متأثر . وقد تحول انعكاس الواقع

ادراك الانسان ،

(او البيئـة الموضوعيـة الموجودة بشكـل مستقل عن انعكاسا فيزيائيـا منفعـلا (الذي هو من صفات الاجسام الجامدة كما بينـا) في مجرى عمليـة النشوء والارتقاء الى انعكـاس بايولوجـي يختلف اختلافا جذريـا ونوعيـا وان كان مستندا اليـه في اصلـه النشوئي . وعندما اصبحت الحيوانات نفسها - وبيئتها ايضا - اكثر تعقيـدا نشأ شكـل جديد من الانعكاس ارقى من سابقـه (الـذي هو الاحساس البسيط) واخـذ يعبر عن نفســه على اساس قيـام الحيوان باستنتاجات معينة ازاء العوامل البيئـة لا مجرد الشعور بها . ثـم اخذت الاحساسات البسيطـة نفسها تزداد تعقيـدا ودقـة بنشـوء الجهاز العصبي المركزي وتطوره لدى الحيوانات (الراقية بصـورة خاصة صعدا الى الانسان) . وهـذا يعنـي ان الانعكاس الذي نشأ عند الانسان فـي مجرى تطوره البايولوجي المتميز (والاجتماعي الذي نشأ بعده وعلى اساســه) اخـذ شكـلا جديـــدا ارقـى من الانعكاس البايولوجي وان كان مستندا اليـه مــن الناحيـة النشوئيـة هو الانعكاس السايكولوجي (الاجتماعي الاصل) : يتضـح هـذا فـي ان الانسان يعكس بوعـي او ادراك في ذهنـه العوامــل البيئية ويسعى لتكييفها وفـق مستلزمات بقائـه وتطوره وذلك لان صراع الانسـان مع البيئـة العاتية لا يقتصر على قدرته على التكيف السلبي لها - كما هـي الحال فـي الحيوانات الراقيـة الاخرى - وانمـا هـو يتعـدى ذلك (والى الدرجـة الاهم) فيشمل سيطرتـه عليها واستذلالها بعـد الكشـف عن قوانينها وارتباطاتها :

يتضـح اذن ان الانعكاس ظاهرة تاريخيـة نشوئية تطورية متعددة المستويات يستنـد كل مستوى من مستوياتـه الصاعدة (او اشكالـه المتعددة التعقيـد) الى المستوى الادنـى الذي سبقه ويصبح بـدوره اساسا للمستوى اللاحـق الاعلى الذي يتخطاه وان كـان ملتحما بـه ومستندا اليـه وناجما فـي الاصـل عنـه وحادثـا فـي الزمن بعده من الناحيـة التاريخيـة . والانعكاس الذي يحصـل في دمـاغ الانسان

(او المعرفة بالتعبير الاشمل) يختلف اختلافا نوعيا وجذريا حاسما
عن نظيره لدى الحيوانات الراقية الاخرى وذلك بفعل البيئة
الاجتماعية التي ينفرد بها الانسان وفي مقدمتها نشاطه الجسمي

(او المعرفة بالتعبير الاشمل) يختلف اختلافا نوعيا وجذريا حاسما
عن نظيره لدى الحيوانات الراقية الاخرى وذلك بفعل البيئة
الاجتماعية التي ينفرد بها الانسان وفي مقدمتها نشاطه الجسمي

(اثناء مغالبة الطبيعة) واللغة المتحدث بها والمدونة التي تنقل المعرفة عبر الاجيال والمجتمعات ومن شخص الى اخر . ولكل مستوى من هذه المستويات قوانينه الخاصة به التي نشأت بنشوئه والتي تفسر طبيعته . معنى هذا ان قوانين الطبيعة والمجتمع والفكر (باستثناء قوانين الديالكتيك الاكثر شمولا التي يظهر مفعولها في نطاق الكون باسره) هي قوانين تاريخية خاضعة لعملية النشوء والارتقاء : أي انها نشأت بالتدريج وبمرور الزمن الطويل عندما توافرت ظروفها الموضوعية . فقد مضى زمن طويل على الارض (منذ نشوئها قبل اكثر من ٥٠٠٠ مليون سنة الى ظهور الحياة عليها بأبسط اشكالها قبل زهاء ٢٥٠٠ مليون سنة) لم تكن فيها الا المادة الجامدة والا قوانين الفيزياء والكيمياء التي تفسر سلوك الجمادات . وحينما نشأت الحياة (بأبسط اشكالها وتطورت قبل نشوء البشريات المنقرضة : انسان جاوا وانسان بكين قبل حوالي نصف مليون سنة) نشأت قوانين جديدة (احدث من قوانين الفيزياء والكيمياء وارقى منها تطوريا) هي قوانين الحياة التي تفسر سلوك الاحياء . ثم نشأت بنشوء الانسان العاقل الذي ظهر قبل حوالي ٥٠٠٠٠ سنة قوانين جديدة اجتماعية خاصة بالانسان هي قوانين تطور المجتمع التي اخذت بدورها بالتطور . بتطور المجتمع نفسه من المشاعية البدائية الى الاشتراكية العلمية . كل هذا يدل على ان في العالم الذي نعيش فيه قوانين كثيرة : فهناك قوانين الطبيعة اللاعضوية والقوانين البايولوجية وقوانين

المجتمع والفكر . لكل منها جوانبـه العامة المشتركة وجوانب خاصـة متميزة . ولهـذا فانـه من غيـر الجائـز علميـا ان نفسر طبيعـة المستوى الارقى وفـق قوانيـن المستوى الادنـى (فلا يجوز مثـلا تفسيـر طبيعة الانسان وهـي موضوع علـم النفس كما ـ نرى وفق قوانيـن علـم الاحيـاء او تفسيـر طبيعة الكائنـات الحية وفـق قوانيـن الفيزياء والكيمياء) وذلك لاختلافهما النوعـي مع تلاحمهما واستناد المستوى الاعلى على الادنـى من الناحيـة التطورية . غير ان هـذا لا يعنـي الانفصال التام او الانقطاع الكامل بيـن المستويات المختلفة لان كـل مستوى ينفـي الذي قبلـه نفيـا ديالكتيكيـا ويستبقـي بعض خواصـه التي تفسرهـا قوانينه القديمة الخاصة . فالانسان مثـلا ما زال مرتبطـا بالاحيـاء الاخرى وما زالـت القوانين البايولوجيـة تفسر طبيعته تفسيـرا جزئيا ـ اي انها تفسر جانبه البايولوجي المشترك مع الاحيـاء الاخرى وان كان ذا مستوى ارقـى ـ . اما طبيعته الاجتماعيـة المميزة فلا تفسرها الا قوانيـن تطور المجتمع .

لنظرية الانعكاس ـ عند الانسان ـ جانبان احدهما فلسفي والاخر فسلجي وهما متلاحمان متكاملان احدهما يتعين بمحتوى الانعكاس ومضمونـه والاخر بأداته الجسميـة . وان كلا منهمـا كان شرطـا لا بد منـه لحدوث الانعكاس الا انـه بمفرده لا يكونه . وقد صاغ نظريـة الانعكاس بشكلها الفلسفـي ايديولوجيو الثـورة الفرنسية لا سيمـا هو لبـاخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩) ويتلخص جوهرها فـي ان احساساتنـا ومدركاتنـا العقليـة او افكـارنا تعكـس او تعبـر عـن العالـم الخارجـي المحيـط بنـا . وقد طور ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) نظـريـة الانعكاس هذه وفق مبدأ الديالكتيـك المـادي ثم طورها لنين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) ضمن اطارها العـام . ونظريـة الانعكاس المادية الديالكتيكية تختلف اختلافا نوعيـا وجذريا عن نظريـة هولباخ وزملائه التأملية الميكانيكية وذلك لكـون الانسان اداة نشطـة في تعبيرها عن العالم الخارجـي

الذي يغيره الانسان بالممارسة ولكون الانعكاس ايضا من وجهة النظر المادية الديالكتيكية عملية حية معقدة ومتعددة الجوانب وليست مجرد عمل سلبي استسلامي كما يحصل كليا في الجمادات وجزئيا في الحيوانات الراقية التي هي دون مرتبة الانسان ولكون الانسان كذلك يعكس الواقع الموضوعي لا لغرض التكيف السلبي له بل لتغييره وجعله منسجما مع مستلزمات تقدم المجتمع : اي أن الانعكاس ليس غرضا في حد ذاته بل اداة لتحويل العالم الخارجي بشكل يسد فيه الانسان حاجاته المادية والثقافية . أما الجانب الفسلجي للانعكاس فهو الاخر فرنسي النشأة يقترن باسم ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) الفيلسوف الفرنسي وعالم الرياضيات والفسلجة .

ويبدو ان ديكارت اول من استعمل هذا المصطلح ليعبر عن الافعال « اللا ارادية » او اللاعقلية بالتعبير الفلسفي التي تحدث ـ حسب رايه ـ تلقائيا او عفويا وحتميا ويمارسها الجسم عندما تتوافر منبهاتها البيئية (مثل تقلص حدقة العين عند مواجهتها الضوء الساطع) . تقابل هذه الافعال الانعكاسية (اللا ارادية) ـ وهي قليلة العدد ـ وتناقضها ـ عنده ـ الافعال « العقلية » او « الادارية » اللاجسمية او اللامادية التي هي اغلب تصرفات الانسان . ومحاولة ديكارت هذه رغم نواقصها بمقاييسنا العلمية الحديثة كما سنرى محاولة جريئة وتقدمية (في حدود ظروفها العلمية والاجتماعية) . غير ان ثنائيته الفلسفية (افتراضه ان الانسان مكون من عقل لا مادي ومن جسم يناقضه في الطبيعة والوظيفة) واسلوبه الفلسفي التأملي الملقح بارائه الفيزيائية الميكانيكية ادت جميعها الى انحرافه عن طريق العلم الطبيعي الامر الذي احدث ضررا بالغا في علم النفس وذلك باستبعاد العقل من حقل الدراسة الموضوعية . كما ان تقسيمه افعال الانسان الى « ارادية » او « لا ارادية » او جسمية او انعكاسية قد ادى الى ان تستأصل في

اذهان علماء النفس الغربيين فكرة كون العمل الانعكاسي هو رد فعل اوتوماتيكي او عفوي يناقض العمل العقلي ويفتقـــر الى التدبـر والرويـة .

اهمل الباحثـون الذين جاؤوا بعد ديكارت موضوع الافعـال الانعكاسيـة فبقـي هـذا الموضوع فـي مكانـه الذي تركـه فيـه ديكارت منـذ النصـف الاول من القرن السابـع عشر . ولم يبـدا الاهتمام بـه الا فـي الثلـث الاخيـر من القرن الثامن عشر بنتيجة ابحاث عالم الفسلجة الجيكـي بروجاسكا ومن بعده في ثلاثينيـات القرن الماضي بجهـود الطبيب الفرنسي مارشال هول . ومع ان هوءلاء الباحثين فندوا مختبريا اراء ديكارت فـي كيفيـة حـدوث الفعـل الانعكاسي واثبتوا ان مركز الافعـال الانعكاسيـة تقـع فـي القسم الاسفـل من الدماغ (فـي النخاع المستطيـل والحبل الشوكـي) الا انهم استمروا فـي التسليم بان الاعمـال العقليـة لا صلة لها بالدماغ وانها تقـع خارج نطـاق الفسلجة (في علم النفس ذي المنحى الفلسفي اللاعلمي) . وهـذا يعنـي ان هوءلاء الباحثين سدوا بأوجههم منافـذ البحـث الفسلجـي (العلمي) فـي نشاط الدماغ . وقد سلم بافلوف في اول الامر بوجهـة النظـر السايكولوجيـة في تفسيـر طبيعـة الاعمـال « الارادية » عند الانسان ، ولكنـه اخذ بالتدريج يشك في قيمتها العلميـة ويعتبرها المنحدر الذي يهبـط اليـه عالم الفسلجـة ويفقـد اتصاله بالعلم الطبيعي من حيث اسلوبـه فـي البحـث ومن ناحيـة معطياتـه النظريـة . وهـذا يعنـي بعبارة اخـرى ان الفسلجة وجدت نفسها حتى اواخر القرن الماضي في مأزق حـرج : فالنشاط الدماغي من حيث هو ظاهرة فسلجيـة لا بد ان يوضع بنظر بافلوف ، في اطار الفسلجة شأنـه شأن جمع وجوه النشـاط الجسمي وبذلك ننتشله من علم النفس الذي لم يبلـغ درجـة حتى بنظر المشتغلين بـه . اي ان الفسلجـة التي لـم تستوف جميـع مستلزماتها العلميـة انذاك (رغم تقدمها بالقياس بعلم النفس) قـد

استندت في دراسة الدماغ (عضو التفكير) على علم النفس الاقل تقدما الذي اوقعها في اخر المطاف في احضان الفلسفة المثالية اللاعلمية بدلا من ان يستند علم النفس اليها فيهذب اسلوبه وتمده الفسلجة بالحقائق العلمية وتدفعه بالتدريج الى الاستعانة بالفيزياء والكيمياء والرياضيات أي ان بافلوف ابدى قناعته التامة بالحق المطلق للفكر العلمي في ان « يكتسح قلعة علم النفس التي استمرت ابوابها موصدة بوجهه ردحا طويلا من الزمن . »(١). معنى هذا ان بافلوف قد سد المنافذ على الباحثين غير العلميين الذين سيطروا على علم النفس (وما زالوا في العالم الغربي والدول النامية) واتخذوا منه ملجأ فكريا بعد ان طرد العلم زملاءهم من فروع المعرفة العلمية الاخرى .

ذكرنا ان علم المنعكسات الشرطية Conditioned'ref lexes يرتبط باسم بافلوف . ونود ان ننبه هنا الى ضرورة تمييز هذا العلم (وهو علم طبيعي كالفيزياء والكيمياء) عن النزعات السايكولوجية المماثلة اللاعلمية التي ارتبطت به دون وجه حق وهي نزعات ميكانيكية لا علمية منها مثلا النزعة الفسلجية الميكانيكية التي انتشرت في الاتحاد السوفيتي في عشرينيات هذا القرن وارتبطت باسم بختريف وسيبلييف والمسماة علم الاشتراط Reflexolgy والنزعة «الاشتراطية» Comditionalism التي تقترن باسماء فريق من علماء النفس الاميركيين المعاصرين مثل هل وكاتري وتولمان وسكنر وهي خليط من سلوكية ووتسن ومصطلحات بافلوفية ممسوخة . ولا بد من التمييز ايضا بين نظرية المنعكسات الشرطية وبين « النظريات » اللاعلمية الاخرى الشائعة في الغرب بالعلاقة بين الدماغ والفكر (بين اداة الفكر ومحتواه) : واولها ـ واقدمها ـ « النظرية » التي مفادها ان الانطباعات الذهنية والوظائف المخية (التي تتسلمها من البيئة) وجهان مختلفان لعملية واحدة . ووجه الخطأ في هذه « النظرية » هو انها تخلط بين الصور

الذهنية (اللامادية) وبين ادوات تسلمها (المادية : المخية : الجسمية) : او بين المحتوى والمضمون والاداة او العضو وتكرر الترتيب الصاعد الذي ينطلق (في حياة الانسان العقلية) من القاعدة (الفسلجية) الى القمة (السايكولوجية) او التركيب الاعلى Superstucture و « النظرية » الثانية التي فحواها تكرار العلاقة بين الصور الذهنية وبين العمليات المخية باعتبارهما ظاهرتين متنافرتين في الاساس من حيث الطبيعة والوظيفة. وهي «نظرية» مغلوطة ايضا تستند الى علم النفس الفسلجي القديم الذي كان في اساسه الفلسفي مثاليا وماديا ميكانيكيا في آن واحد . ولا شك في ان صياغة الوظائف السايكولوجية وجوانبها الفسلجية بهذه الصورة توءدي في آخر المطاف الى ان تفقد هذه الاخيرة اساسها المادي وفاعليتها من جهة كما يجعل ايضا الوظائف السايكولوجية نفسها تظهر على غير حقيقتها الاصلية التي تتميز بها من حيث كونها شكلا خاصا جديدا من اشكال الطبيعة الحية تعبر فيه القوانين الفسلجية عن نفسها بشكل ارقى على هيئة قوانين سايكولوجية نشأت في مجرى التطور في اعقاب ظهور القوانين الفسلجية وعلى اساسها بفعل نشوء المجتمع الانساني . واما « النظرية » الثالثة – وهي اقل شيوعا في الوقت الحاضر – فمفادها ان العمليات العقلية (الصور الذهنية : الجوانب السايكولوجية) « مادة » يفرزها الدماغ على نسق العصارات الاخرى التي يفرزها الجسم : أي ان العمليات العقلية ظواهر مادية في الاصل من حيث المحتوى وهي « نظرية » فلسفية . انتشرت في المانية منذ اواخر القرن الماضي وارتبطت باسم فوكت (١٨١٧ – ١٨٩٥) وعرفت ب « المادية المبتذلة » Vulgar materialism

واما « النظرية » الرابعة فتقول بانعزال قوانين عمل الدماغ Neuradyamics عن القوانين السايكولوجية انعزالا تاما

اساس ان قوانيـن عمل الدماغ يقتصر مفعولها على الجانب ومطلقا على (المادي) وحده ولا تؤثـر اطــلاقا فـي الجانـب الجسمي (المحتوى) او التركيب الاعلى الذي يتوج الاساس السايكولوجي ويستند اليـه . ولا شـك فـي ان وضـع الصلة بيـن الدماغي الفسلجـي والسايكولوجـي بهـذا الشكـل يجعل هـذه الجانبين « النظرية » تبدو على غيـر حقيقتها الاصليـة وكأنها تفسر تفسيـرا علميـا الصلة بينهما . غيـر انها ــ بعد التحليـل الدقيق ، لنظريـة فلسفيـة فسلجيـة ثنائيـة مقنعة (بتشديـد النـون مع فتحها) او مغلفة (بتشديد اللام المفتوحـة) تسيـر باتجاه عمودي صاعـد من القاعدة الفسلجيـة الى ذروتها السايكولوجيـة او بنائها الاعلـى تماما كما تفعـل النظريـة الثانية التـي تسيـر باتجاه افقـي اذا جاز هـذا التعبيـر . وهـي فـي حقيقتها محاولة جديـدة ــ لا علميـة ــ لانعاش النظريـة القديمة المشار اليها التي كانـت في اصلها الفلسفـي مزيجـا غريـب الشكـل من الفلسفتيـن المتنافرتيـن : المثاليـة والماديـة الميكانيكيـة . ومـع ان الماديـة الميكانيكيـة هـذه قد لعبـت دورا تقدميـا ــ وعلميـا ايضا بالنسبة لظروف القرنيـن السابـع عشر والثامـن عشر في اوربا ــ اثنـاء صراعها ضد الافكار الفلسفيـة المثاليـة وضد ايديولوجيي الاقطـاع والحكـم الفردي الملكـي المطلـق ولكونها ايضا مهـدت السبيـل الايديولوجـي للثـورة الفرنسيـة غيـر ان جوهرها كان ميتافيزيقيا وتأمليـا (لا ديالكتيكيـا) ولم تمتـد الى تفسيـر التاريـخ واخفقت ايضا فـي ادراك دور الممارسـة الثوريـة فـي تقدم المجتمع ولـم تندمـج بحركـة الجماهيـر الديمقراطيـة الثورية ولـم تأخذ علـى عاتقهـا مهمـة تغيير المجتمع تغييرا جذريا : اي انها اخفقت (لكونها ميكانيكيـة وميتافيزيقيـة وتأمليـة فـي آن واحد) فـي ان تفسر تفسيرا علميا ظاهرة التطـور فـي الطبيعـة والمجتمع والفكر . ولـم تستطـع الكشـف عن جوهر التطـور ومصدره (الذي يكمن فـي

وحدة الاضداد وصراعها . ومع انها وقفت بالمرصاد للفكر الفلسفي المثالي وكانت ـ كما ذكرنا ـ تقدمية وعلمية من هذه الناحية بالنسبة لظروفها التاريخية الا ان اصحابها لم يقفوا ـ الا نادرا ـ في صفوف القوى الاجتماعية التقدمية وبخاصة جماهير الشعب العاملة ولم يستطيعوا دمج الفلسفة المادية بمصالح الطبقات الاجتماعية الكادحة وبنشاطها الطبقي الثوري نحو التحرر او الانعتاق . وكل هذا يعود ـ بالدرجة الاولى والاهم ـ لفقدانها الديالكتيك الذي كان آنذاك مثاليا (هيكليا) ضيق المجال مقصورا على المدركات العقلية ولا علاقة له بالواقع المادي الذي يعيش فيه الانسان . وهذا يعني ـ في جوهره ـ ان الديالكتيك نفسه يتنافى وطبيعة الفلسفة المثالية ذاتها : أي ان الطريقة المادية الديالكتيكية تختلف اختلافا نوعيا وجذريا عن نظيرتها الهيكيلية فيما يتصل بتفسير طبيعة الفكر الذي هو موضوع علم النفس . فالفكر ـ في الديالكتيك الهيكلي ـ كيان موضوعي قائم في حد ذاته وان « العالم الخارجي نفسه هو في حقيقته تجسيد للفكر » كما يقول هيكل . في حين ان الفكر ـ من وجهة نظر المادية الديالكتيكية ـ هو عكس ذلك تماما : انعكاس في ذهن الانسان عن العالم الخارجي كما سبق ان بينا .

تلك هي بايجاز ملامح نظرية المنعكسات الشرطية وهي اساس علم النفس السوفيتي بأوجهه المتعددة التي سنشير الى اهمها في مقال اخر وبخاصة ما يتعلق منها بحقل التعليم المدرسي . فقد ادى علم المنعكسات الشرطية الى نشوء حركة نقاش كبرى في حقل التعليم في الاتحاد السوفيتي بدت طلائعها عام ١٩٣٠ بين صفوف علماء النفس والمربين حول مسألة « الذكاء الفطري » ومقاييس الذكاء اثناء التهيوء لوضع اسس الخطة الاقتصادية الخمسية الثانية وفي غمرة الحاجة الى ازالة الامية ونشر التعليم بمختلف مراحله وتعدد اشكاله بين ابناء العمال والفلاحين ومراتب

الشعب الكادحة المحرومة الاخرى على اوسع نطاق ممكن لاستثمار طاقات الشباب المخية الخلاقة الى حدها الاقصى بعد تدريبها وتطويرها واثرائها بالمعرفة العلمية . تنتج عن حركة النقاش العلمي (التي استمرت زهاء ست سنوات متتالية ساهم فيها المختصون على صفحات الجرائد اليومية والمجلات والندوات والمدارس وقاعات الاجتماعات والمحاضرات) تفنيد مبدأ الذكاء الفطري المزعوم وعقم اختباراته التي كانت موجهة في الاصل ضد التلاميذ المتخلفين في دراستهم ــ لعوامل اجتماعية ــ وضد الاطفال الذين لا يستطيعون تكييف انفسهم للمواد الدراسية العقيمة الموجودة في المنهج المدرسي وكانت تعزو اخفاق الطلاب في الاجابة عن اسئلتها العقيمة الى « الوراثة البايولوجية » المزعومة . وهذا يعني بعبارة اخرى ، اعفاء المدرسة والنظام الاجتماعي القيصري الفاسد عن تحمل مسوءولية ذلك التخلف وجعل الاطفال كبش الفداء وايجاد الاعذار او المبررات السايكولوجية لابعاد هوءلاء الاطفال عن الدراسة .

وقد لقي هذا النقاش العلمي الاساس والتقدمي الاغراض مقاومة شرسة قام بها اساتذة علم النفس ورجال التربية الذين يمثلون وجهة النظر الرجوعية المنهارة والذين كانوا ما يزالون يحتفظون بمراكزهم المرموقة الحساسة في الحرم الجامعي وفي وزارة التربية ــ او وزارة التجهيل كما كان يسميها لنن ــ .وكانت نقطة انطلاق هوءلاء الذين يعبرون عن ايديولوجيا الطبقات الاجتماعية المخلوعة ان جماهير الشعب تفتقر الى « القدرة الفطرية» لاستيعاب الثقافة او المساهمة الايجابية في تطورها . وان تلك الجماهير (التي كانوا يسمونها الرعاع او الاوباش او الدهماء او الغوغاء) تجنح بطبيعتها « الفطرية » كما يزعمون نحو الهدم او التخريب وان الافكار التقدمية الجديدة في علم النفس العلمي معادية بطبيعتها ــ على ما زعموا ــ للتراث الثقافي للجنس البشري.

وقد التف اولئك ... Volnofily واخذوا يقومون بنشاط ايديولوجي محموم وبخاصة في الفلسفة وعلم النفس لتسميم عقول الناشئة . واستمر ذلك فترة طويلة من الزمن نسبيا لكون علم النفس القديم (شأنه شأن البناء الاعلى بأسره) لم يتلاش بمجرد اسقاط النظام القيصري السياسي واستئصال قاعدته الاقتصادية . وهنا تبدو اهمية بافلوف وعلماء النفس السوفييت الشبان الذين انضموا اليه عن قناعة علمية ولاغراض اجتماعية تقدمية . وقد ادى ذلك الى ان تصدر الحكومة السوفيتية في ٤-٦-١٩٣٦ قرارا تاريخيا يمنع استعمال اختبارات الذكاء في جميع انحاء البلاد والاستعاضة عنها باجراءات تعليمية اخرى ملائمة . واتجهت الابحاث السايكولوجية اللاحقة نحو الكشف عن الطبيعة المكتسبة للذكاء – مع اخذ جوانبه الفسلجية بنظر الاعتبار بالطبع – وتعمق البحث في علاقة اللغة بالذكاء منذ مراحل الطفولة الاولى كما سنرى في مقال اخر . وازدادت العناية بالاطفال المتخلفين في دراستهم وبخاصة في العلوم والرياضيات وثبت انها ناجمة في الاصل عن عقم اساليب التدريس مما يؤدي الى نقص في نمو المنعكسات الشرطية الاساسية نموا تاما في مواعيدها المحددة او فقدانها فقدانا تاما او نموها بغير اتجاهها الصحيح .

اهم مصادر البحث

1 : Paulov, g.p.: Lectures on Conditioned Reflexes, London , Lawrence and Wishart, 1963.

2 : Sechenov. g.: Celected Psychological and Physio —

logical works, Moscow , Foreign Languages Publis
House, 1952.

3 : Simon, B.: Psychology in the Soviet Union, Lo
Rout Ledge, 1957.

4 : Simon, B.: Educational Psychology in the USSR., Lo
Routledge, 1963.

5 : O'Connor, N.: Receut Soviet Psychology, London. 19

الدكتور نوري جعفر : طبيعة الانسان في ضوء فسلجـــة بافلوف
ـ بغداد ـ مطبعة الزهراء ـ ١٩٧١ .